البنية الديناميكية للمجتمع المعاصر
وفق براديغم التعقيد

أ. سعيدي عبد الفتاح
جامعة الوادي

ملخص:

يميل البنيويون إلى دراسة المجتمع دراسة ستاتيكية على أساس أنه مكون من أفراد تجمعهم علاقات ثقافية ثابتة،ولكن الدراسات المعاصرة التي تنتهج براديغم التعقيد والتي قام بها الكثير من علماء الاجتماع وعلى رأسهم إدغار موران تنظر إلى المجتمع على أنه بنية ولكنها بنية مفتوحة، تحكمها قوانين ديناميكية بحتة لا تستبعد التاريخية–كما يذهب إلى ذلك البنيويون–ولكنها تعتبر التاريخية شرط أساسي من شروط ثباتها واستقرارها،ومن مميزات هذا التصور المنظوماتي للبنية الديناميكية الاجتماعية القدرة على التنظيم الذاتي و الحوار بين الانفتاح والانغلاق.

Résumé:
Le structuralisme est parmi les courants des études socioculturelles qui traite la société comme une structure stable, formée par des relations culturelles dont la nature statique. A la fin du XX ème siècle on a vu le bouleversement total de ce point de vue. Edgar Morin est un sociologue français contemporain qui est à la tête des fondateurs du paradigme de complexité, ce dernier concentre ses études sur l'importance de la structure dynamique, de l'historicité, et sur les principes dialogiques de l'ouverture/fermeture comme conditions de stabilité de nature temporelle.

1–ماهي البنية الديناميكية؟

أ–التعريف العام:

بنية الشيء في اللغة العربية هي "تكوينه" ،وهي كلمة تعني أيضاً "الكيفية" التي شيد على نحوها هذا البناء أو ذاك.وحين نتحدث عن البناء الاجتماعي أو بناء الشخصية أو البناء اللغوي، فإننا نشير بذلك إلى وجود نسق عام، أهم ما يتصف به هو عنصر النظام، فالبناء هو صورة منظمة لمجموع من العناصر المتماسكة. ومن هنا فإن التعريف المبدئي للبناء أو البنية Structure يقوم على اعتباره مجموعة من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيرة يمكن أن ينشأ على منوالها عدد لا حصر له من النماذج.([1])

ب–التعريفات الاستاتيكية(Définitions statiques)

–يعرف أندري لالاند من جهته البنية بقوله: إن البنية هي كل متكوّن من ظواهر متضامنة، بحيث إن كل منها يتوقف على الأخرى، ولا يمكنه أن يكون ما هو عليه إلا في علاقته معها، وبهذه العلاقة.([2])

–وهناك تعريف آخر لألبير سوبول، وهو أحد خصوص البنيوية من رجالات التاريخ، يقول:«إن مفهوم البنية لهو مفهوم العلاقات الباطنة، الثابتة، المتعقلة وفقاً لمبدأ الأولية المطلقة للكل على الأجزاء، بحيث لا يكون من الممكن فهم أي عنصر من عناصر البنية خارجاً عن الوضع الذي يشغله داخل تلك البنية،أعني داخل المنظومة الكلية الشاملة» ثم يعلق سوبول على هذا التعريف فيقول إنه يفترض أن في وسع المنظومة الكلية أن تظل باقية، ثابتة، غير متغيرة، على الرغم من التحولات أو التغيرات الناجمة عن تغير أو تحول العناصر. والشيء الذي نفهمه أن مقولة الثبات هي من المقولات الأساسية التي تحتل مكان الصدارة في كل تحليل بنيوي. ويعترض سوبول على إمكانية أن تبقى البنية ثابتة، نظراً لأن شأن التوترات والمتناقضات الباطنة أن تعمل من خلال آلياتها(أو ميكانيزماتها) المتعددة على إحداث "توازن" جديد، ويذهب سوبول إلى أن التحليل البنيوي يعطي الصدارة لمفهوم الثبات على مفهوم الحركة، ويقدم المقولات المورفولوجية على المقولات التطورية.

وعلى الرغم مما يتصف به البنائيون من صرامة في التفكير إلا أنهم يميلون إلى تفضيل النظام على التغير.ولهذا فهم ضد التاريخ، لأن التاريخ يهدم،أما النسق فيتصف بالثبات. يقول ليفي ستروس:"لكي نتوصل إلى الواقع ينبغي أن نستبعد المعاش(Pour atteindre le réel,il faut écarter le vécu)

– وتطلق البنية في علم التشريح على تركيب أجزاء البدن، لا على وظائف هذه الأجزاء، وتطلق في علم النفس على العناصر التي تتألف منها الحياة العقلية من جهة ما هي عناصر ساكنة.

– ويقرر كلود ليفي اشتراوس أن« البنية تحمل–أولاً وقبل كل شيء–طابع النسق أو النظام. فالبنية تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض للواحد منها،أن يحدث تحولاً في باقي العناصر الأخرى.»ويشرح ليفي اشتراوس–في موضع آخر– المقصود بهذا التعريف، فيقول إن عالم الاجتماع الذي يواجه كثرة هائلة من الظواهر الاجتماعية(من طقوس، وعقائد، وأساطير..إلخ)، سرعان ما يتحقق من أن كل هذه الظواهر تعبر بلغة خاصة عن شيء مشترك بينهما جميعاً.([3])

ج–التعريفات الديناميكية(Définitions dynamiques)

–وتُعرف البنية كذلك على أنها نسق من العلاقات الباطنة(المُدركة وفقاً لمبدأ الأولية المطلقة للكل على الأجزاء) له قوانينه الخاصة المحايثة، من حيث هو نسق يتصف بالوحدة الداخلية والانتظام الذاتي، على

نحو يفضي فيه أي تغير في العلاقات إلى تغير النسق نفسه، وعلى نحو ينطوي معه المجموع الكلي للعلاقات على دلالة يغدو معها النسق دالاً على معنى.

ويتضمن هذا التعريف مجموعة من المسلمات:

أولها:أن البنية تصور عقلي أقرب إلى التجريد منه إلى التعين(فالبنية هي ما نعقله- بصياغة منطقية- من علاقات الأشياء لا الأشياء ذاتها).

و**ثانيها**:أن موضوع هذا التصور يتصف بأنه حقيقة لاشعورية لا تظهر بنفسها بل تدل عليها آثارها أو نتائجها.

و**ثالثها**:أن هذه الحقيقة اللاشعورية الباطنة(الكامنة في الموضوعات،أو الكامنة في عقولنا المدركة لها- بمعنى أدق)حقيقة آنية تلفت الانتباه إلى تشكلها في الآن أكثر من تشكلها عبر الزمان،وتميل إلى الثبات أكثر مما تميل إلى الحركة.

و**رابعها**:أن هذه الحقيقة الآنية تلفتنا إلى نفسها أكثر مما تلفتنا إلى فاعلها، وتكشف عن نظامها المحايث أكثر مما تكشف عن الذات الفاعلة في هذا النظام.وبقدر ما تؤدي هذه المسلمات-ضمناً-إلى نفي صفة "التاريخية" عن معنى البنية فإنها تؤكد إزاحة الذات الفاعلة عن مركز البنية،على نحو يغدو معه بناء البنية"نظاماً آلياً" يعمل بطريقة لا واعية تتجاوز إرادة الأفراد.([4])

-ويعرف جون بياجيه البنية بقوله:« وتبدو البنية، بتقدير أولي، مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة (تقابل خصائص العناصر) تبقى أو تغتني بلعبة التحويلات نفسها،دون أن تتعدى حدودها أو أن تستعين بعناصر خارجية.وبكلمة موجزة،تتألف البنية من ميزات ثلاث:الجملة،والتحويلات، والضبط الذاتي.»([5])

-كذلك أن البنية هي نسق من التحولات،له قوانينه الخاصة باعتباره نسقاً(في مقابل الخصائص المميزة للعناصر)،علماً بأن من شأن هذا النسق أن يظل قائماً ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به تلك التحولات نفسها، دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود النسق، أو أن تهيب بأية عناصر أخرى تكون خارجة عنه.»([6])

2-ماهي البنية الاجتماعية؟

تعني البنية الاجتماعية تماسك المؤسسات الاجتماعية وانسجامها(تعريف موردوك Mrudock):وبوجه أعم تعني البنية،عند الوظيفيين والبنيويين، النماطة أو بناء النمط ارتكازاً على المقومات التالية:1-وضع قائمة بالمتغيرات الهامة 2-البرهان على أن هذه المتغيرات تمتاز بترابطات داخلية قوية أي مُنبنية، يعني

موزعة بطريقة غير عشوائية.3- استعمال هذه الترابطات الداخلية لتوزيع الأشياء المدروسة على أنماط أو أصناف.([7])

وللبنى الاجتماعية عند(موس) ثلاثة أقسام: الأول هو المشتمل على البنى المكانية (كحارات العبيد والصينيين في المدن الأمريكية) والثاني هو المشتمل على البنى اللامادية (كطبقات السن في المجتمع) والثالث هو البنى المختلطة(كالعشائر البدوية)([8])

3-ما هي طبيعة البنية الاجتماعية الديناميكية للمجتمع المعاصر؟

أ-الروابط:الكل /الأجزاء Relations:Tout/Parties

إذا كان علم الاجتماع يرتكز أساسا على دراسة الواقع الاجتماعي.فما هي مكونات هذا الواقع؟ وماهي جزئياته؟ يتكون المجتمع من أفراد، كل واحد من هؤلاء الأفراد له حريته وشخصيته وطريقته في التفكير، ولكن من أي زاوية يمكن أن ننظر إلى المجتمع كظاهرة كلية شمولية؟ هل المجتمع هو فقط مجموع أفراده أم أنه حقيقة كلية تختلف كل الاختلاف عن مجموع هؤلاء الأفراد؟ يكون المجتمع حقيقة جوفاء تتمثل في مجموع الأفراد المشكّلين له إذا نظرنا إلى هؤلاء الأفراد نظرة انفصالية استقلالية،ويكون ذلك كذلك إذا نظرنا إلى كل فرد على حدا . ولكن الذي يميز الواقع الاجتماعي هو تلك العلاقات الخصبة والثرية التي تجمع أفراد المجتمع،وبقدر ما يكون تركيزنا على تلك الشبكات التي تشكّلها علاقات الأفراد المتعددة بقدر ما نقترب من فهم حقيقة المجتمع كوحدة وكهوية مستقلة عن الأفراد. ولكن فكرة العلاقات الموجودة بين الأفراد-هي الأخرى- بقدر ما تُسهّل من تمييز الواقع الاجتماعي بقدر ما تزيد من صعوبة فهمه، فهذه العلاقات متعددة ومتنوعة؛ فهناك علاقات متميّزة تجمع أفراد الأسرة الواحدة وأخرى تجمع أفراد المعمل الواحد أو المدرسة الواحدة أو السوق أو تلك العلاقات الواسعة جداً التي تميز أولئك الذين يتكلمون لغة واحدة أو يدينون بدين واحد.

لا يمكن النظر بأي حال من الأحوال إلى أفراد المجتمع الواحد كأجزاء، كعناصر عاطلة، خاملة تُفرض عليها هذه العلاقات فرضاً من طرف (قوى خارجة) عن المجتمع،حيث تتكفل هذه (القوى الخارجية) بربط عناصر المجتمع وفق علاقات ثابتة ومحددة تعمل هذه (القوى الخارجية) على مراقبتها وتنظيمها،ولدراسة هذه المنظومة الاجتماعية يكون ذلك أساساً بتحليل وتفكيك هذه القوى، والنظر إلى تأثير كل جزء من هذه القوى في هذه المنظومة ويكون في الأخير مجموعة من التغيرات تتناسب مع مجموع هذه القوى، وأي تأثير في هذه القوى يرافقه تغير محدد على مستوى المنظومة، وبتعبير آخر فكل تغير في جملة القوى التي تمثل مدخلات المنظومة يرافقه تغير خطي على مستوى مخرجات المنظومة.

لقد كانت نظرة الدراسات التقليدية إلى المجتمع كبنية ستاتيكية ثابتة تحكمها عناصر الثقافة التي تميز هذا المجتمع بالذات دون غيره من المجتمعات،ولذلك فإذا قمنا بتحليل عناصر ثقافة مجتمع من المجتمعات نكون قد وضعنا يدنا على حقيقة هذا المجتمع،ولكن هذه الوضعية لا تختلف كثيراً عن عمل الجراح الذي يُشرِّح الجثة ويفتتها إلى عناصرها الهامدة معتقداً أنه قد كشف على حقيقة بنية الكائن الحي، أو بالأحرى أن يعتقد أنه قد فهم ظاهرة الحياة نفسها،ولكنه ليس الحق لكل من لمس السلك النحاسي أن يقول بأنه قد فهم حقيقة الكهرباء.

يمكن النظر إلى أفراد المجتمع كأجزاء ووحدات فاعلة أو منظومات تحتية sous-systèmes ضمن المجتمع كمنظومة كلية شاملة système وتفاعل هذه الوحدات فيما بينها هو الذي ينبثق عنه المجتمع كحقيقة متميزة عن حقيقة أفراده،ومن خلال مقدار ودرجة هذه التفاعلات المتمثلة في اللغة والدين والعادات والتقاليد والأعراف والقوانين والقيم الأخلاقية تتحدد ثقافة المجتمع الذي يحدد ثقافة أفراده الذين يحددون بدورهم طبيعة ودرجة ثقافة هذا المجتمع الذي يوجد فيهم مثلما يوجدون فيه.ولهذا فلا معنى لأن نعتبر المؤسسات الثقافية(كاللغة والدين والعادات والتقاليد والقيم الأخلاقية والجمالية، والقوانين..) كمؤسسات مشكِّلة ومهيكلة لبنية المجتمع بشكل مستقل تماماً عن الأفراد، ولا معنى لأن نحدد مكان تواجد العناصر الثقافية: أهي داخل المجتمع أم داخل كل فرد من أفراده؟ والجواب المنظوماتي أن عناصر الثقافة موجودة داخل المجتمع، لأنها موجودة داخل الأفراد، لأنهم موجودون داخل المجتمع، هذا الأخير الذي يوجد بدوره بداخلهم.ومن هنا يبرز الطابع الحواري الجدلي الذي تتحدد من خلاله عناصر ثقافة مجتمع من المجتمعات بشكل ديناميكي مفتوح. فمفهوم الثقافة الذي يتصوره الفرد يتجلى بعد صراعه مع تصورات الأفراد الآخرين في تصور اجتماعي كلي شمولي، ثم يأخذ هذا التصور طريق العودة ليتجلى في تصور كل فرد من الأفراد. لقد كان الفيلسوف اليوناني القديم سقراط محقاً حينما اعتبر الحوار التوليدي هو طريق العلم وآلة إنتاج التصورات التي لا توصلنا في نهاية المحاورة إلى أي تحديد نهائي لها، بل يبقى باب الحوار مفتوحاً، وكان الجميع يتساءل عن المغزى من ذلك. ولكن الطابع الديناميكي للحوار هو الذي يتميز بخاصية الانفتاح، ولكن الانفتاح على ماذا؟ الانفتاح هنا يكون على كل ما هو ممكن. ولا يمكن بأي حال التنبؤ بما سوف يكون.

ب-الانفتاح والانغلاق L'ouverture/fermeture

ولكن:إلى أي مدى يمكن اعتبار هذا الحوار أجزاء-كل (أفراد-مجتمع)مجرد حوار تكراري يستنفد كل محتوى ثقافي أصيل؟

للإجابة على هذا السؤال ينبغي تحديد مدى انفتاح المجتمع كمنظومة على غيره من المجتمعات أم هو منغلق على ذاته؟

لقد استفاد علماء الاجتماع كثيرا من مفهوم الانتروبيا الفيزيائي Entropie،هذا المفهوم الذي عرفته الديناميكا الحرارية لمنتصف القرن التاسع عشر، والذي يقضي بان المنظومة المنعزلة تزداد فيها درجة الفوضى على حساب النظام إلى درجة الموت الحراري، أين يحدث التوازن ويتوقف كل شيء عن الحركة.ويتعلق مفهوم الانتروبيا بكل بساطة بتلك الطاقة المستنفدة التي لا يمكن الاستفادة منها: فكل استخدام للطاقة، أو تحول لها من شكل لآخر، يؤدي إلى خسارة جزء منها على شكل طاقة ضائعة. وفي الحقيقة، يخسر كل شيء طاقته تدريجياً في كوننا، ليتحول إلى انتروبيا.([9])

ولهذا فيمكن تقسيم المنظومات إلى نوعين:

منظومة المغلقة Closed system: هي التي تصور النسق على أنه شيء كلي مترابط له استقلال تام أو ارتباط ضعيف مع البيئة الخارجية.بمعنى أن النسق المغلق هو النسق الذي لا يستلم طاقة من المحيط الخارجي ولا يصدر أي طاقة إلى ذلك المحيط.وقد استمدت هذه الفكرة من علوم الفيزياء.والواقع أن هذا النسق موجود في عالم المثاليات لا عالم الواقع،إذ لم تعد فكرة الأنساق المغلقة صالحة في دراسة المنظمات الاجتماعية على سبيل المثال.([10])

منظومة المفتوحة Open system: هو الذي يصور النسق أو ينظر إليه على أنه شيء كلي يتفاعل مع البيئة تفاعلا تبادليا،وهذا التفاعل يمثل الأساس في تغيير معالم النسق وتحديد مساراته وحركته،كما أنه يقرر بقاء النسق من عدمه.ومن الواضح أن هذا النسق هو الذي يجسد التفاعل الحركي للنظام مع بيئته،وعليه فهو أكثر واقعية لدراسة التنظيمات.([11])

وبالمثل فإنه يمكن تصنيف المجتمعات إلى منغلقة ومفتوحة:فالمجتمع المنغلق على نفسه هو ذلك المجتمع الذي يرفض ثقافة الآخرين ويكتفي بثقافته الخاصة به، وخير مثال على ذلك المجتمعات البدائية التي تعيش في غابات الأمازون وأدغال أفريقيا، وهي نفسها المجتمعات التي تظل تجتر ثقافتها إلى درجة تحول سلوكاتها إلى سلوكات آلية أقرب بكثير لغرائز مجتمعات النمل والنحل،وتفقد بذلك الثقافة روحها وتصبح تُمارس بشكل أجوف لا روح فيه، وتخلو لذلك وبذلك من الوعي والقدرة على التعامل مع المجتمعات الأخرى، وعند هذا يقبع السلوك الممثل للعلاقات الاجتماعية في حلقة مُفرَغة تكرر ذاتها دوماً وأبداً،وتصبح العادات والتقاليد وكل عناصر الثقافة قابلة للدراسة وفق قوانين تكاد تكون مطابقة لتلك القوانين التي نراها في العلوم الفيزيائية،والتي تصف الظواهر وصفاً يمكننا من التنبؤ بها بشكل يقيني.

وخلاصة القول أن ثقافة مثل هذه المجتمعات تخلو تماما من الديناميكية الخلاقة التي تحفظ للمجتمع توازنه الايجابي،وهذا ما نراه بوضوح مع المجتمعات المنفتحة بصفتها منظومات تغذي نفسها تثاقفياً باستمرار، الأمر الذي يجعل من الحوار أفراد–مجتمع حواراً بناء بعيد عن الآلية والتكرار الذي يعيد نفس الصورة عبر محور الزمن، وعلى العكس من ذلك تماماً يعمل هذا الحوار على تكوين تغدية تثاقفية ثنائية القطب، بمعنى أن الفرد يثقف الجماعة في نفس الوقت الذي يتثقف منها، وتتثقف الجماعة بصفتها كمنظومة من منظومات أعلى Super systèmes تعمل هي في نفس الوقت على تغذيتها رجعياً.وبقدر انفتاح المنظومة الاجتماعية بقدر ما تكون ظاهرة المثاقفة L'acculturation قوية وخصبة.

ولكن يجب أن ننتبه إلى أن المنظومة الاجتماعية ذات الطابع الديناميكي عالي المستوى، هي منظومة تحسن توحيد المتناقض فيها، تجيد تناسق الشكل الحواري انغلاق انفتاح، حيث تتميز بالانغلاق بقدر انفتاحها، كما تتميز بالانفتاح بقدر انغلاقها، وخير مثال على هذا يمكن طرح إشكالية الأصالة والمعاصرة كإشكالية تحاول المجتمعات المعاصرة التغلب عليها من أجل إثبات وجودها،فيلتزم بعضها، أي بعض المجتمعات، بفلسفة التمسك بالأصالة، وهي فلسفة–بطبيعة الحال–ذات طابع انغلاقي، وينتهج البعض الآخر فلسفة المُعاصَرة كفلسفة تفرض على المجتمع أن ينفتح على مِصرعيه على عناصر ثقافة الآخرين مع محاولة مواكبتها باستمرار. والنتيجة أن كلا الطرفين لا يتقن لغة الحوار التثاقفي، فالمجتمع ذو البنية الديناميكية يعمل على تحويل إشكالية الاختيار الفاصل بين الأصالة والمعاصرة إلى اختيار متضمن للطرفين رافض لهما في نفس الوقت، اختيار مفتوح على الطرفين، يحقق أصالة المجتمع عندما يغذيها بعناصر الثقافة الوافدة–على حد تعبير الجابري–كما يعمل على تجديد الهوية بتجاوز الهوية في حد ذاتها.

ومن المصطلحات الاجتماعية ذات الدوي الهائل ابتداء من أحداث سبتمبر 2001 "صدام الحضارت" كما يذهب إلى ذلك صامويل هنتينغتون، إلى جانب مصطلح" حوار الحضارات" عند أولئك الذين يتميزون بروح التفاؤلية الحالمة. ولكن ألا يمكن أن ندرج مفهوم كلمة"صدام" ضمن إطار كلمة" حوار" لأن التصادم هو ببعض المعاني شكل من أشكال الحوار، ولكنه حوار عنيف، ينطلق من منطق رفض وجود الآخر، ولهذا السبب فهو يصدمه، يحاول أن يقضي عليه. ولكن وجود الآخر كنقيض هو شرط وجود الموجود،ولكن هذا الموجود الذي نتكلم عنه هنا ليس وجودا بالمفهوم الاستاتيكي،الذي يفرض وجوده بالنظر إلى ذاته فقط،ووفق رؤية انعكاسية،ولكنه الوجود الديناميكي الذي يستعين حوارياً بالآخر من أجل إيجاد ذاته ولكن وفق محور الزمن،أي بشكل يفرض استقراره مواصلة الحوار،والدأب فيه.

ج–التاريخانية L'historicité

إذا وضعنا قطعة حديد في النار فإنها تتمدد وفق مقدار معين،وكلما كررنا هذه التجربة كررت نفس الشروط،وبعد ذلك يصبح الفيزيائي قادراً على التنبؤ بما حدث(في الماضي) وما سوف يحدث (في المستقبل) لهذه القطعة من الحديد،نستنتج من هذه التجربة المتواضعة أن الظاهرة الفيزيائية هي ظاهرة ثابتة،تحافظ على نفس السلوك دون أن تعدل فيه أو تغير فيه شيئاً.وهذا هو الأمر الذي يعتمد عليه الباحث العلمي في عملية التنبؤ واستخلاص القانون الفيزيائي الذي تخضع له هذه الظاهرة وكل ظاهرة مشابهة،لأن تمدد هذه القطعة من الحديد بهذه النسبة هي خاصية ولا تتعلق بهذه القطعة من الحديد فقط(أي هذا الجزء)وإنما تتعلق بأي قطعة حديدية في أي مكان كانت(الأمر يتعلق بالكل)،وطابع التكرار يدل على ثباتها في الزمان.ومنه فالحقيقة المتعلقة بالجزء،بالفرد هي صادقة على الكل في مختلف شروطه الزمانية والمكانية وهذه الفكرة هي المسلمة الأساسية التي يقوم عليها القانون العلمي.

إن توصل العلماء إلى مثل هذه القوانين هو نوع من السلطة،لأن الطبيعة من خلاله تبدو سلبية بشكل مطلق،لا تجرؤ البتة على أن تحتال على مستكشفها(الباحث العلمي) وتغير أو تعدل من سلوكها،وهكذا تصبح معرفة القانون العلمي سلطة تجعل من الطبيعة ذلك العبد الذليل الطائع المنفذ للأوامر،الذي لا يخفي وراء سكوته وإذعانه شيئاً،فهو واضح إلى درجة الشفافية.ومن هنا استقى العلماء فكرة اليقين العلمي،الذي يدعي معرفة عميقة بالواقع تصل إلى سبر أبعد أغواره.ولكن السؤال الذي يُطرح الآن:إلى أي مدى يمكن للظاهرة الاجتماعية أن تخضع لمثل هذه القوانين الصارمة؟

بالرغم من المجهودات الضخمة التي بذلها العلماء والباحثين لإخضاع الظاهرة الاجتماعية للمنهج التجريبي وللتنبؤ بها من خلال استخلاصها من القوانين العامة التي تحكمها إلا أن الظاهرة الاجتماعية ظلت مبدعة خلاّقة،تقدم للباحثين في كل مرة عنصر المفاجأة؛فإذا كانت قطعة الحديد تحافظ على سلوكها التمددي الثابت طيلة التجارب المتكررة التي يقوم بها الباحث العلمي إلا أن الظاهرة الاجتماعية تأبى إلا أن تندّ عن هذه القاعدة بأن تتغير مع كل تجربة،فلا مكان للتكرار هنا،ففي كل مرة تأتينا الظاهرة الاجتماعية بالجديد،في كل مرة تفاجئنا بما هو غير متوقع.إن هذا السلوك الإبداعي الذي تتمتع به الظاهرة الاجتماعية يجعلها في حلٍّ من كل القيود التي يفرضها عليها منطق القانون العلمي وخطوات المنهج التجريبي.لقد كانت هذه السمة عقبة استمولوجية تقف كحجرة عثرة في وجه تقدم علم الاجتماع واكتسابه لصفة العلمية،لكن الجديد الذي طرأ على علم الديناميكا الحرارية اللاخطية مع تطور الدراسات البيولوجية مع نهاية القرن العشرين قد بيّنت أهمية الطابع الحواري الذي تتمتع به الظاهرة الاجتماعية،فسلوك قطعة الحديد كرد فعل على التجربة التي يقوم بها الباحث العلمي تكشف عن مدى

بلادة السلوك الطبيعي الذي يظل يكرّر نفسه بشكل أرعن،بشكل يجعله يدرج سلوكه هذا في حلقة مفرغة من التكرارات الجوفاء،وهذا أقصى ما كان يهدف إليه العلماء من دراستهم للظواهر،فالهدف الأسمى- عندهم-هو اكتشاف النظام الكامن وراء الفوضى الماثلة للحواس،هذا النظام المتمثل في هذا السلوك التكراري،الذي يعيد نفسه باستمرار وفق نفس الشروط.ومن هذا التكرار الثابت تُستخلص القاعدة.

د-الحوارية La dialogicité

إن هدف العلماء المعاصرين هو محاولة تجاوز ببغائية الحوار مع الطبيعة،حيث تكون العلاقة بين الباحث العلمي والظواهر الطبيعية علاقة تكافؤ بين طرفين متعادلين،يملكان نفس الذكاء،يقدم كل واحد منهما للآخر الجديد،المفاجئ،الذي لم يكن متوقعاً بالنسبة للآخر،إنه نفس الحوار الذي يجريه المعلم مع تلامذته،يحضّر المذكرة؛يحدد فيها مجموعة من الأسئلة التي سوف يطرحها،ثم يحاول أن يحصر بعد ذلك الإجابات المتوقعة من طرفهم،إلا أن الغريب في الأمر،أن يحدث دائماً ما لم يكن في الحسبان،كأن يقدم التلاميذ إجابات لم يتوقعها المعلم،أن يطرحوا أسئلة أخرى،أن يبدوا اهتمامات أخرى.وحينما يحاول المعلم تطبيق نفس الحوار المُعدل على قسم آخر(تلاميذ آخرين)فيتفاجأ من جديد بالجديد في الموضوع،وحتى لو حاول تكرار نفس الحوار مع نفس الفوج التربوي فإنه سوف يلمس الجديد في الموضوع.

فمن خلال هذه الأمثلة ندرك أهمية المحور الزماني في دراسة الظاهرة الاجتماعية،حيث أن هذا المحور يكشف دائما عن الجديد،فالمجتمع يتجدد بفناء ظواهره،بخلق ظواهره،ويحافظ بذلك على وجوده لا بتكرار سلوكه تكراراً ثابتاً يكشف عن سلبية الظاهرة أمام الباحث العلمي،الذي يريد أن يثبت سلطته على الظاهرة باكتشاف القانون الذي يحكمها والذي يمكنه من التنبؤ بها من خلال غبائها المتكرر،من خلال تحويل الحوار معها حوارَ ملك مستبد مع عبد ذليل، لا يملك من أمره سوى الطاعة العمياء والإذعان الشديد لكل طلبات سيِّده.ولكن الشكل الذي يحافظ المجتمع به على وجوده هو حوار يكشف عنه إدغار موران،عالم الاجتماع الفرنسي،الذي يحدد خطوات منهجه،أو بالأحرى وجهة نظره إزاء الظاهرة الاجتماعية من خلال ثلاثة مبادئ أساسية تميزها كمنظومة معقدة،لا يمكن تحليلها أثناء دراستها بل يجب تناولها بالشكل الذي تبدو عليه.وهذه المبادئ تتمثل في ما يلي: ([12])

- المبدأ الحواري:Principe dialogique المقصود بالمبدأ الحواري هو ذلك المبدأ الذي يضمن وجود الثنائية داخل الوحدة،هذه الوحدة التي تربط مفهومين متكاملين ومتناقضين في نفس الوقت.وتكمن أهمية هذا المبدأ في أنه يسمح بالاعتراف بالظواهر التي يجب أن ترتبط بمفاهيم متعارضة،بل متناقضة،لكي يمكن فهم حقيقتها في الواقع.([13])

ولا شك أن فهم المبدأ الحواري يفرض علينا تسليط الضوء بعض الشيء على مصطلح "الحوار" في حد ذاته. فالحَور لغة:هو الرجوع إلى النقصان.وقيل:نعوذ بالله من الحور بعد الكور،أي من التردد في الأمر بعد المضي فيه ،أو من نقصان وتردد في الحال بعد الزيادة فيها.([14])

أما في اللغات الأجنبية فالحوار: dia–logos وهو مصطلح مركّب من كلمتين:Dia وتعني اثنين،و Logos وتعني الكلام.والمعنى هو التحاور بين اثنين.ويتطلب هذا التخاطب قبول كل متحاور بالآخر على أنه مساو له في فهم الحقائق وإدراكها وتقبلها.

وفي حقبة تالية،تقدم الحوار ليصبح الجدل أو الديالكتيك dia–lectique،وهو التفاعل الفكري بين متحاورين متساويين في الملكات والقدرات العقلية.([15])

والحواريةDialogique حسب تصور عالم الاجتماع الفرنسي إدغار موران وهي وحدة معقدة بين منطقين،وكيانين أو سلطتين تكميليتين،ومتنافسين ومتعارضين يتغذى أحدهما على الآخر ،ويكملان بعضهما،لكنهما يتعارضان ويتحاربان أيضاً.وينبغي تمييز هذه الحوارية عن الديالكتيكية الهيغلية.فلدى هيغل،تجد المتناقضات حلولاً لها،ويتجاوز بعضها البعض ويلغي بعضها بعضاً داخل وحدة عليا.في الحوارية،تكون المتناقضات دائمة وتشكل كيانات أو ظواهر معقدة.([16])

- مبدأ الترديد التنظيمي: Principe de récursion organisationnelle المقصود بما هو ترديدي هو ذلك القابل لأن يتكرر عدد غير محدود من المرات وفق نفس المبدأ.

إن فكرة الترديد قد حملت في طياتها أول توضيح لفكرة التعقيد.وهي نفسها الفكرة التي سمحت لإدغار موران من أن يجد الحل لأغلوطة الفصل والاختزال التي في المعتاد ما ترتبط بتعابير معزولة أو مختزلة بفضل مبدأ التبسيط.لقد وضح مبدأ الترديد جلياً للعيان ما كان مبدأ التبسيط قد قام بتخبئته،أي العلاقة والتمفصل بين هذه المصطلحات.لقد سمح مبدأ التردد باستيحاء ومجابهة تعقد الواقع،وليس الفرار منه أو باختزاله كما تذهب إلى ذلك تلك النظرة التبسيطية.([17])

أما هذا المبدأ كمبدأ فالمقصود به أن المُنتَجات و النتائج هي في الوقت نفسه مُنتِجات وأسباب لِما أنتجها.ومثال ذلك أن الأفراد هم المنتجون للمجتمع الذي أنتجهم. إن فكرة الترديد قد أدت بإدغار موران شيئاً فشيئاً إلى إنشاء منطق جديد أطلق عليه اسم المنطق الحواريla logique récursive .والمنطق الحواري هو بالتعريف المنطق الخاص بالتعقيد.حيث يساعدنا هذا المنطق دائماً أثناء تبصر الأشياء في تولُّدها المزدوج،أي تولدها مما هو متعارض متناقض ومتكامل.كما يدعونا هذا المنطق إلى التصورات المتعلقة بالدائرية وبمفهوم الحلقة.إن تطبيق هذا المنطق هو الذي أدى تدريجياً إلى

انبثاق هذا المنهج.وخير تعبير على منهج إدغار موران هذه المقولة التي ذكرها في كتاب المنهج:«نحن نلتمس إمكانية تحويل الحلقات المفرغة إلى حلقات مليئة،تتميز بكونها انعكاسية ومولِّدة لفكر معقد (...)لا يجب البتة إحداث شروخ في في هذه التصورات الدائرية،بل يجب على العكس من ذلك الحرص على عدم قطعها.فالدائرة سوف تصبح عجلتنا،وطريقنا سوف يصبح حلزونياً.»([18])

- مبدأ الشمولية:Principe hologrammmatique وهو المبدأ الذي مفاده أنه لا يوجد فقط الأجزاء في الكل بل يوجد كذلك الكل في الجزء. ومن أمثلة ذلك ما نراه في عالم البيولوجيا حيث أن كل الخريطة الجينية المُشكِّلة للجسم كله توجد في كل خلية من خلايا الجسم.والشمولية أو المبدأ الشمولي هو صورة تضم كل نقطة فيها مجمل المعلومات المتصلة بالشيء الممثَل.ولا يعني المبدأ الشمولي أن الجزء داخل الكل فحسب،بل إن الكل داخل الجزء على نحو ما.إذ تضم الخلية مجمل المعلومات الوراثية،مما يتيح مبدئياً الاستنساخ البشري؛والمجتمع بصفته كلاً،مروراً بثقافته،حاضر في ذهن كل فرد. ([19])

وهذه المبادئ الثلاثة التي تقوم عليها المنظومة المعقدة ليست منفصلة عن بعضها البعض،بل كل واحد منها يكمّل الآخر؛ففكرة الشمولية أو الكلية ترتبط فكرة الترديد التنظيمي وهذه الفكرة الأخيرة ترتبط بدورها بفكرة الحوارية. وعلى سبيل المثال فالمجتمع هو جملة التفاعلات الموجودة بين الأفراد،ولكن بمجرد أن يظهر المجتمع ككل فسرعان ما يرتد ويؤثر على الأفراد والخلاصة أن المجتمع في علاقة حوارية بينه وبين الأفراد.فبدون المجتمع وبدون الثقافة التي يحملها لما كان هناك أشخاص بحقيقة معنوية،أي بالشخصيات التي تميّزهم،وبتعبير آخر فإن الأفراد يولِّدون المجتمع الذي يولِّد الأفراد.فنحن في حقيقة الأمر منتجات ومنتجين للمجتمع في نفس الوقت.فكل مُنتَج يعود إلى الذي أنتجه في حلقة مغلقة مُشكِّلة لذاتها،مُنظِّمة لذاتها،وأخيراً منتجة لذاتها.ولكن السؤال عن طبيعة هذه الحلقة: هل هي حلقة مفرغة Cercle vicieux أو هل هي حلقة مملوءة cercle vertueux ؟

إذا كان مبدأ البساطة الذي تتميز به المنظومات الخطية الكلاسيكية التي من شأنها أن تفصل،تختزل،فإن مبدأ التعقيد تتعلق طبيعته بالربط،في الوقت الذي يفصل فيه ويميّز.

إن منطلق التفكير المعقد يتعلق بالفعل الحواري الدائم ذهاب–إياب بين اليقين واللايقين ،بين العنصري والشمولي،وكذلك بين ما يقبل الانفصال وبين ما لا يقبله.إنه لا يتخلى نهائياً على مبادئ العلم الكلاسيكي المتمثلة في تمجيد النظام والاعتماد على الفصل والمنطق،ولكنه يعمد إلى دمجها داخل مخطط يتمتع في نفس الوقت بالرحابة والغنى.إن الأمر في هذا المضمار لا يتعلق بشمولية جوفاء في مقابل اختزالية

منهجية؛إن الأمر يتعلق بإعادة ربط ما هو ملموس ومشخص في الأجزاء بالكلية الشمولية العامة،حيث يتم مفصلة مبادئ النظام والفوضى،مبادئ الوصل والفصل،وكذلك مبادئ التبعية والاستقلال.هذه المبادئ التي تتميز في الوقت نفسه بالتكامل والتنافس والتعارض داخل الكون.([20])

إن التفكير العلمي الكلاسيكي مؤسس على مجموعة من التصورات كالنظام،وقابلية الفصل،بالإضافة إلى مبادئ التفكير المنطقي،يتقوم هذا التفكير على انتزاع منظومات مغلقة،والتركيز على علاقات ذات طبيعة خطية،والمقصود بهذه العلاقات أن تتناسب الأسباب مع النتائج؛فالأسباب الطفيفة تؤدي إلى نتائج طفيفة كذلك والعكس صحيح.([21])

ومن جهة أخرى فالمنظومات البيولوجية والاجتماعية هي منظومات مفتوحة بالمعنى الذي تتبادل فيه الطاقة والمعلومات مع الوسط المحيط بها.تتميز هذه المنظومات بالفوضى وعدم الاستقرار،والتنوُّع،وعدم التوازن،هذا بالإضافة إلى العلاقات اللاخطية،حيث يمكن لأسباب تافهة جداً من أن تحدث آثاراً غاية في الضخامة والعظمة.([22])

إن تحليل مثل هذه المنظومات لا يمكن أن يعتمد على مناهج العلم الكلاسيكي،لأن هذه المناهج لا يمكن أن تدرس دون أن تفصل،دون أن تختزل،وهذا ما يعمل الفكر المعقد على تفاديه.إن المقاربات الجديدة التي تعمل على تفسير هذه المنظومات المعقدة الفيزيائية والاجتماعية في مختلف ميادين العلوم البحتة والتطبيقية التي تمجد الانفتاح والإبداع الذي يمكِّن من إحداث نقلة من البسيط إلى المعقد وتحوُّل من البنية إلى السيرورة Processus .إن تطوراً من هذا النوع ليدل بوضوح على تغير جذري في البراديغم الذي يقوم عليه التفكير العلمي.إن هذا البراديغم الجديد قد تولَّد في الوقت ذاته من تنامي وحدود العلوم المعاصرة،فهو لا يتنازل تماماً عن مبادئ العلم الكلاسيكي ولكنه يقوم بدمجها ،ولكن ليس بهدف اختزال الواقع في وحدات عنصرية وفي قوانين عامة.([23])

يتميّز التعقيد خصوصاً بالتفاعل بين العناصر.وبالرغم من أهمية هذه التفاعلات إلا أنها غير كافية،إذ نجد أنفسنا دوماً بحاجة إلى وسائل جديدة تتعلق بالتفكير في حد ذاته،وذلك من أجل فهم ظواهر الأثر الرجعي،وتأسيس أنماط منطق تتعلق بالآثار الراجعة.ولذلك فمن أجل فهم الترديد la récursion سوف نقدم الزوايا الثلاث التي من خلالها يفسر إدغار موران فكرة السببية:

السببية الخطية: في السببية الخطية أو الحتمية يكون دائما سبق زمني للأسباب على النتائج التي تنتجها بشكل منتظم.وخير مثال على ذلك أن كل جسم يقذف في الهواء يسقط على الفور تحت تأثير الجاذبية

الأرضية،ومثال آخر أن الماء يتجمد دوماً وحتماً تحت درجة حرارة الصفر المئوي(وذلك وفق الشرط النظامي فيما يتعلق بالضغط)وفي علم الاقتصاد أي مشروع لا يلقى تمويلاً فإنه يُلغى مباشرة .

ويمكن أن نفهم من هذا أن السببية الخطية تُفهم دوماً على أنها خارجية على المنظومة التي هي بصدد التأثير عليها:أنها سببية متعالية بالمفهوم الذي نقول وفقه أن نفس الأسباب،في نفس الشروط تؤدي دائماً إلى نفس النتائج.ومنه فإن السبب والنتيجة يتواجدان وفق نسبة إرتباطية:حيث يمكن بكل بساطة تمييزهما عن بعضهما البعض،حيث تكون النتيجة دوماً متغير تابع تبعية ميكانيكية حتمية للسبب،الذي يستقل في وجوده استقلالية تامة عن النتيجة.وهذه السببية هي التي يعتمد عليها العلم الكلاسيكي التحليلي كل الاعتماد في تفسيراته لمختلف ظواهر الواقع سواء كان هذا الواقع فيزيائي أو اجتماعي.

السببية الدائرية الترديدية المشتقة من علم السيبرنيتيقا:

يكون هناك تدخل للسببية الخارجية بمجرد أن يكون هناك تفاعلات بين المنظومة والوسط المحيط بها.ومما هو ملاحظ أن التنظيمات غير الفعّالة تتعارض مع السببية الخارجية بشكل سلبي.ويمكن في هذه الحالة،ولهذا السبب الأخير،تطبيق مخطط السببية الخطية دون أن يثير أي إشكال.وعلى العكس من ذلك،فإن التنظيمات الفعّالة ترد الفعل على السببية الخارجية بشكل سِجالي ديناميكي.وهذا ما يسميه موران بالسببية الترديدية La causalité rétroactive .

يقول موران بأنه لا يوجد في هذه الحالة سلب للسببية الخارجية،ولكن الذي يحدث يتمثل في عملية إنتاج تتم وفق علاقة معقدة(تكاملية،تعارضية،تنافسية)بين السببية الخارجية والسببية الداخلية.([24])

إن المثال الأكثر شيوعاً لتوضيح هذا النوع من السببية هي ضابطة الحرارة le thermostat التي تعدل تلقائياً درجة الحرارة،في حالة ما إذا اختلفت هذه الأخيرة عن الدرجة المطلوبة،وهو ما نراه في المكيّف الهوائي الذي تتدخل درجة الحرارة المطلوبة في توقفه واشتغاله.وفي علم الاقتصاد يمكن الركون إلى فكرة استقرار الأسعار من خلال قانون العرض والطلب،حيث أن زيادة العرض تؤدي إلى قلة الطلب والعكس صحيح،وهذا ما يؤدي دوماً إلى استقرار الأسعار.

السببية الترديدية :وفي هذا النوع من السببية تكون النتائج ضرورية بالنسبة للسيرورة التي ولدتها.فالبيضة تولِّد الدجاجة التي تولِّد البيضة.فالمشاريع تولِّد التنظيم الموجَّه،وهو عبارة عن مشاريع تُولِّد مشاريع أخرى.

إن السيرورة الترديدية هي سيرورة تكون فيها المنتجات والنتائج في نفس الوقت أسباب ومُنتِجات للذي أنتجها. إننا نلاحظ إشارة إلى السببية الدائرية في بعض التعابير مثل:الفقر يسبب التخلف والتخلف يسبب الفقر.فالمجتمع الفقير أصبح كذلك لأنه متخلف،وهو متخلف لأنه لا يملك الإمكانات المادية التي يملكها

الأغنياء. ([25])ولكن عندما تكون الدائرة مليئة تُفهم السببية الدائرية بشكل ديناميكي،حيث تزداد شدة الفقر في كل دورة وكذلك تزداد شدة التخلف،وكأننا نقول الفقر يسبب التخلف وهذا التخلف الناتج يؤدي إلى فقر أشد من الأول،وهذا الفقر الشديد يؤدي إلى تخلف أكبر من الأول وتستمر العملية بشكل حواري كل من القطبين فقر/تخلف يغذي الآخر بشكل مفتوح،يصل إلى حد نهائي.وهو ما يطلق عليه تأثير كرة الثلج ففي كل دورة يزداد حجمها،وكلما يكبر هذا الحجم يساهم في بلوغ الكرة إلى حجم أكبر.وهو ما يمكن تمثيله في المجتمع بظاهرة الانفجار الديموغرافي؛فكل ما يزداد عدد السكان هذا يساهم بدوره في زيادة عدد السكان،إن لم تتدخل عوامل خارجية عكس اتجاه هذه الزيادة كالحروب والأوبئة وغيرها.

هـ-الانبثاق: Emergence

المقصود بالانبثاق تلك الظواهر التي تتكون بدون أن يؤخذ تكونها بالحسبان في وقت مناسب ثمة عنصر مفاجأة يتدخل في تكونها مثلاً ظاهرة تضخم الأسعار أو ظاهرة إقبال الناس على شراء الأراضي.([26])

والانبثاقات هي خصائص أو سمات ناتجة عن تنظيم عناصر أو عدة مكونات متنوعة واتحادها في كل،لا يمكن استنباطها،من خلال سمات أو خصائص مكونات معزولة،ولا يمكن أن تُعزى إلى هذه المكونات.الانبثاقات ليست ظواهر عابرة أو بنى عليا،بل سمات عليا ناتجة عن التعقيد التنظيمي.ويمكن أن تؤثر رجعياً على المكونات بمنحها سمات الكل.([27]) والمجتمعات البشرية تملك من الظواهر الانبثاقية ما يجعل كل المؤسسات الثقافية التي تميّز مجتمع من المجتمعات دليل على ذلك،بدليل أن المظهر الثقافي لأي مجتمع ليس نتيجة سلوك فرد من الأفراد بل نتيجة سلوك مجتمع بأسره.

و-التنظيم الذاتي: L'auto organisation

إن ظاهرة التنظيم الذاتي هي ظاهرة توحي بمدى ثقافة المجتمع الانفتاحية وبمقدار ديناميكيته،لأن العكس يفرضه منظماً خارجياً للعلاقات التي تحكم المجتمع كمنظومة،وكما أن الكائن الحي ينمو ويتطور بشكل طبيعي بمقدار حظ هذا الكائن من التغذية،أي بمقدار انفتاح هذا الكائن على البيئة،على الوسط المحيط به،فإذا لم يتغذ الكائن الحي مات،وموته تعني انحلال جسمه وفقدان عناصره لتلك العلاقات التي تجعل منه كائناً متميّزاً بحدوده كمنظومة،وبعد ذلك تصبح عناصره في أيدي عوامل خارجية تنظمها كيف تشاء.

إن انتظام المجتمع ذاتياً يعني أن العلاقات التي تميّز بنيته هي من إنشائه هو بذاته،وليس بفعل قوى خارجية قد أدت إلى ذلك،وليس معنى هذا أن جملة القوى الخارجية المحيطة بالمنظومة لا تأثير لها عليها،ولكن المقصود أن المنظومة حتى تحد من سلطة هذه القوى الخارجية تعمل على أن تتكيف معها بشكل حواري قوى خارجية/قوى داخلية تجعل من المنظومة تنتظم ذاتيا عن طريق خلق/التخلي عن

علاقات تتناسب مع الظروف البيئية المحيطة بالمنظومة،فالمجتمع الناجح هو ذلك الذي يمتلك ميكانيزمات تكيف ذات طابع إيجابي،أي أن هذا المجتمع لا يتكيف بشكل ميكانيكي يجعل بصمات القوى الخارجية هي المحددة لهذا التكيف،وهذا ما نادت به نظريات التطور عند لامارك وداروين وهربرت سبنسر وغيرهم،ولكن التكيف بالمفهوم المعاصر هو حوار صراعي تناغمي بين قوى المنظومة وقوى بيئة المنظومة التي هي عبارة عن منظومة أو جزء من منظومة.وهذا كما سبق أن ذكرت يتوقف على مدى انفتاح المنظومة على بيئتها،فبقدر انفتاحها تمتلك إمكانية الانغلاق،والعكس صحيح،إذا تم ذلك وفق محور الزمن بشكل سجالي مفتوح.ومن بين أمثلة التنظيم الذاتي داخل المجتمعات ظاهرة الدعارة مثلاً ،وهي ظاهرة تنمو بفعل التنظيم الذاتي وتتخذ لها نمطاً محدداً في الممارسة مثلاً،الاتصال المباشر أو بوسيلة أخرى،اللقاء سراً،دفع المال،ممارسة الفعل،التكتم،الخ...إنها تبرز من صميم التنظيم الذاتي الاجتماعي وليس من الخارج.([28])

الخاتمة:

مما سبق قوله نصل إلى أن المجتمع قد بدأ مع براديغم التعقيد يتخلى عن تلك النظرة التحليلية،التفكيكية التي تصور المجتمع كهيكل جامد،كبنية ستاتيكية يتسنى للباحث الاجتماعي التسلل إلى حقيقتها لمجرد تناول هذه الأجزاء منفصلة. لقد أوضح البرنامج التعقيدي اللاديكارتي ذلك الجانب الديناميكي الذي يحكم البنية الاجتماعية،هذه البنية التي تظهر لنا ثباتها المنبثق من وراء السيرورة التاريخية التي تحكمها،ولذلك فالإبداع الاجتماعي المتجدد لهذه البنية يبرزها كقصة تتضافر فيها عوامل الجدة والتراكم الذي يميِّز كرة الجليد،تلك الكرة التي يكبر حجمها بمقدار حركتها،تلك القصة التي يصنع الماضي حاضرها ويمتزج ويتفاعل لينبثق بشكل يجعل الحاضر نتيجة إبداعه وصورة فنية صنعتها آناملة.

إن البنية التي يظهر فيها المجتمع في ثوبه الديناميكي هي نتيجة خاصية ظلت لقرون حبيسة الفلسفة والتاريخ،والتي تتمثل في **الحوارية**،هذه الخاصية التي يرفضها علم الاجتماع الوضعي ويصرُّ إلا على أن ينظر إلى المجتمع بصفته مجموعة من المؤسسات الثقافية الثابتة التي تتعاقب الأجيال تربوياً على أن تنهل منها،وكل دارِس للظاهرة الاجتماعية فما عليه إلا أن يمعن في تفتيت خطاطات هذه المؤسسات منفصلة.

لقد دخلت المجتمعات المعاصرة القرن الحادي والعشرين بشبكة عالية المستوى من الاتصالات صنعتها أضخم ثورة لتكنولوجيا المعلومات،جعلت –ولأول مرة– من المجتمعات الإنسانية مجتمعاً واحداً تربطه حبكة عالية المتانة من التواصل،الأمر الذي جعل صفة الحوارية هي الخاصية المحورية التي يجب أن

تحتكم إليها كل الثقافات المتعارضة وكل الأديان المتضاربة. إن روح الحوار–كما يؤكد على ذلك زعيم براديغم التعقيد إدغار موران– هي التي تهضم تناقض الثقافات وتستهلكها كطاقة تسمح بتكوين بنية ديناميكية حساسة للشروط التي أوجدتها،إذ تعطي –في نفس الوقت– للبنية الاجتماعية شكلاً يشبه ذلك الشكل الذي يأخذه الإعصار المُدمِّر،الذي لا يحافظ على ثباته واستقراره إلا بمقدار سرعة دورانه وقوة تغيره،وكذلك أنه لا يستطيع أن يخلق إلا بمقدار ما يدمر،وكذلك المجتمع المعاصر يضحي بثقافته من أجل بناء ثقافته،يضحي بأفراده من أجل تكوين أفراده،ولكن وفق منظور تاريخي بالنسبة لماضية،إبداعي بالنسبة لمستقبله،يجعل كل ما يبنيه يختلف جذرياً عما يهدمه.

الهوامش:

[1])–عبد الوهاب جعفر:البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه،دار المعارف،القاهرة،1989، ص2

[2])– اندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية،المجلد 2،ت:خليل أحمد خليل،منشورات عويدات،بيروت،باريس، ط2، 2001،ص 1341.

[3])– إبراهيم زكريا: مشكلة البنية،دار مصر للطباعة،القاهرة، 1990،ص ص 31–32.

[4])–إديث كريزويل: عصر البنيوية،ترجمة:جابر عصفور،دار سعاد الصباح،الكويت،ط1، 1993، ص413.

[5])– جون بياجيه: البنيوية،ترجمة:عارف منيمنة،بشير أوبري،منشورات عويدات،بيروت،باريس،ط4، 1985، ص8.

[6])– إبراهيم زكريا: مشكلة البنية،ص 30.

[7])–خليل أحمد خليل:المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع،دار الحداثة،بيروت،الطبعة الأولى،1984، ص45.

[8])–جميل صليبا: المعجم الفلسفي،ج1،دار الكتاب اللبناني،بيروت،1982، ص218.

[9])–موسى ديب الخوري:اتجاهات جديدة في العلم،(http://www.maaber.50megs.com/issue_august04/epistemology1.htm)

[10])– مؤيد سعيد السالم:نظرية المنظمة،الهيكل والتصميم،دار وائل للنشر،الطبعة الثالثة، 2008،عمان،الأردن، ص32

[11])– مؤيد سعيد السالم:نظرية المنظمة،نفس الصفحة.

[12])- Claude Michel Loriaux :Questions de méthode et méthodes en question,réflexion sur les conditions,p.68

[13])-Robin Fortin :Comprendre la complexité :introduction à la méthode d'Edgar Morin,édition 2,presses université Laval,2005,(introduction)

[14])–أبو البقاء الكوفي:الكليات،مؤسسة الرسالة،ط2، 1998،ص773.

[15])–ريمون غوش:الفلسفة السياسية في العهد السقراطي،دار الساقي،بيروت،الطبعة الأولى،2008، ص11.

[16])– إدغار موران:النهج،إنسانية البشرية،الهوية البشرية،ت:هناء صبحي،كلمة،أبو ظبي،ط2009،1، ص349.

[17])-Robin Fortin :Comprendre la complexité :introduction à la méthode d'Edgar Morin,édition 2,presses université Laval,2005,p.11.

[18])-Robin Fortin :Comprendre la complexité :introduction à la méthode d'Edgar Morin,édition 2,presses université Laval,2005,p.11.

[19])– إدغار موران:النهج،إنسانية البشرية،الهوية البشرية،ص350.

[20])- Christine Marsan :Réussir le changement,comment sortir des blocages individuels et collectifs ? Editions de Boeck université,2008,p.72.

[21])-Glislaine Cleret de Langavant :Bioéthique :méthode et complexité,université de Saint-Etienne,2001,p.2.

[22])-Glislaine Cleret de Langavant :Bioéthique :méthode et complexité,université de Saint-Etienne,2001,p.2.

[23])-Glislaine Cleret de Langavant :Bioéthique :méthode et complexité,université de Saint-Etienne,2001,p.3.

[24])-Edgar Morin:La Méthode I,Editions du Seuil,2001, p.258.

[25])-خير الله عصار :مدخل للسيبرنطيقا الاجتماعية،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر ،2002،ص63.

[26])-خير الله عصار :مدخل للسيبرنطيقا الاجتماعية،ص66.

[27])- إدغار موران:النهج،إنسانية البشرية،الهوية البشرية،ص350.

[28])-خير الله عصار :مدخل للسيبرنطيقا الاجتماعية،ص83.